المهزومُ ينتصر

كتب أديب تونسى معاصر للشابى يقول : إنه قرأ للشابى قصيدة فى إحدى الصحف التونسية فسأل صاحب الصحيفة عن الشاعر فقال له الصحفى :

(إنه شاب من طلاب جامع الزيتونة أقلقنى بمقطوعاته المكدسة بمكتبى يرجو نشرها ، وقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القطعة) .

والذى يروى هذه القصة هو الأديب التونسى محمد النيال .

وعندما كتب الشابى قصيدته المشهورة :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر

ثار عليه رجال الدين وأثاروا الصحف وجماهير الشعب ضده . فكيف يقول الشاعر : (لابد أن يستجيب القدر) ... كيف يستجيب القدر لقوة الشعب ، بينما القدر لا يستجيب إلا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين (الشابى) كافرًا ملحدًا ، وهاجموه هجومًا عنيفًا وحاربوه على نطاق واسع .

وعندما كتب الشابى قصيدته (صلوات فى هيكل الحب) وقال فى هذه القصيدة :

أنـــت أنشـــــودة الأناشـــيد غنـــاك إلـــه الغنـــاء رب القـــصيد
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعـــى ونـــشوتى وخلـــودى
يا ابنة النور إننى أنا وحـــدى مـــن رأى فيـــك روعـــة المعبـــود

عندما كتب الشابى هذه الأبيات وقف رجال الدين يقولون عنه إنه (وثنى) فهو يؤمن (بإله للغناء) ومعنى هذا أنه يؤمن بإله (للحب) وإله (للمطر) وغـــير ذلك مما لم تعرفه إلا العصور الوثنية سواء عند العرب أو عند الإغريق . ومعنى هذه النزعة الوثنية أن الشاعر مشرك لا يؤمن بإله واحد ، وهو بذلك ضـــد (الوحدانية الإسلامية) .

وبهذا التفسير أيضًا أشعل رجال الدين ثورة ضد الشابى واتهموه بالإلحـــاد والكفر .

وزادت ثورة العقلية القديمة عليه عندما أعلـــن رأيـــه فى الأدب العـــربى وخلاصة هذا الرأى كما يقول الشابى نفسه :

(لا ينبغى لنا أن ننظر إلى الأدب العربى كمثل أعلى للأدب الذى ينبغى أن يكون ، بل ينبغى أن نعده كأدب من الآداب القديمـــة الـــتى نعجـــب بهـــا ونحترمها ، ليس غير . أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقـــديس والعبـــادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته التى يحياهـــا ، ولكل حياة أدبها الذى تنفخ فيه من روحها) .

وقد اعتبر أصحاب العقلية القديمة هذا الرأى امتدادًا لإلحاد الشابى وكفره لأنه لا يحمل التقديس الكامل للأدب العربى القديم الـــذى هـــو - فى نظـــر أصحاب هذه العقلية أدب له قداسة تشبه قداسة الدين .

ولم يكن الصراع والخصام فى حياة الشابى مقصورًا على الميدان الفكـــرى

وحده ، بل تعداه إلى الميدان العملى .

يقول الأستاذ أبو القاسم كروا (بذل الشابى نشاطًا اجتماعيًا كبيرًا، فقد قاد حركة طلاب (الزيتونة) التى كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة فى الكلية وتزعم إضرابهم عن الدروس ، وترأس لجنتهم وسير أعمالهم بوطنية أعجب بها الجميع) .

هذه خطوط عامة للحياة العنيفة التى عاشها الشابى ، حيث دخل معركة مع المجتمع والحياة فى كل ميدان ، ولقى من الإنكار والمعارضة ما يلقاه دائمًا أصحاب الأفكار المتقدمة على العصر الذى يعيشون فيه .

ذلك كان بالأمس، أما اليوم فقد أصبح الشابى فى تونس وفى الوطن العربى كله مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة السياسية لتحرير الوطن ، والثورة الاجتماعية لتحرير المرأة من القيود ولتحرير الإحساس من الجمود ، والثورة العقلية التى أخرجت الثقافة العربية من الذوبان فى الماضى والاقتصار على عبادة الأدب القديم والثقافة القديمة دون الالتفات إلى الثقافات العصرية الجديدة ، وكذلك أصبح الشابى مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة الفنية التى جعلت من الشعر وسيلة رفيعة للتعبير عن التجارب الإنسانية ، لا وسيلة محدودة للتعبير عن المدح والهجاء والأفكار الخالية من العمق والمعنى الإنسانى الكبير .

إن (ثورة الشابى) قد انتصرت فى كل الميادين بل لقد تجاوز الواقع الراهن فى المجتمعات العربية المتقدمة ما كان يدعو إليه الشابى من أفكار وآراء .

ولكن الشابى أصبح الآن رمزًا جميلاً من رموز التحرر والانطلاق فى الحياة العربية . لقد انتصر الشابى بعد وفاته وكان يعانى الهزيمة فى حياته .

ولو ألقينا نظرة عامة على شعر الشابى من الناحية الفنية لوجدناه شاعرًا

جميلاً رقيقًا إلى حد بعيد ، فالقاموس الشعرى الذى ينتقى منه الشابى ألفاظه يعتبر من أنقى القواميس الشعرية فى أدبنا العربى الحديث والقديم ، إن ألفاظه رقيقة شفافة كأنها بلور مضىء أو كأنها نجوم تحولت إلى كلمات ، قليلا ما نجد فى قصائده ألفاظًا خشنة ، أو ألفاظًا صعبة ، أو ألفاظًا خالية من الأناقة . أما موسيقاه الشعرية فهى أيضًا موسيقى نقية ، سهلة ولكنها عميقة ، متلائمة دائمًا مع الأحوال النفسية التى يعبر عنها ... متلائمة مع أرفع مستوى لهذه الأحوال النفسية . والسحر الذى يجذبنا إلى عالم الشابى الفنى يعتمد كثيرًا على هذه الموسيقى العذبة التى تحس بها فى شعره فكأننا نسمع جوقة من العصافير الرقيقة تغنى فى روض ساحر من رياض الطبيعة التى طالما أحبها الشابى ، وأقام صلوات قلبه فى معبدها الكبير . إن (الإحساس الموسيقى) عند الشابى هو بلا شك من أعظم مواهبه ، بل من أعظم (الأحاسيس الموسيقية) التى عرفها أدبنا العربى كله .

وهذه الخصائص الفنية قد شبعت دراسة من النقاد ، ويكفى أن نقرأ بعض القصائد المعروفة للشابى حتى ندرك على الفور سحر ألفاظه ونقاءها ، وعذوبة موسيقاه ، وكثرة لوحاته الفنية عن الطبيعة والإنسان .

على أن السؤال الذى ينبغى أن نجيب عليه قبل أن نطوى صفحات هذا الكتاب هو : ما موقف الذوق العربى المعاصر من شعر الشابى ؟ ... إننا نطرح هذا السؤال بعد وفاة الشابى بما يزيد على أربعين سنة .

ليس من الإنكار لقيمة الشابى ولا من التجنى عليه أن نقول إن الذوق العصرى قد أصبح الآن أكثر خبرة بالحياة ، وأعمق تجربة فيها ، مما كان عليه الشابى ، كما أن التجارب الإنسانية العنيفة التى مر بها الوطن العربى ومر بها الإنسان العربى منذ وفاة الشابى (سنة ١٩٣٤) ، إلى اليوم كانت من القوة والعنف بحيث جعلت معنى الخير والشر أعمق وأكثر تركيبًا من الصورة التى

رآها وأحسها الشابى ، إن الإنسان العربى المعاصر إنسان قد عصرته التجارب ، وذاق من ألوان المأساة صورًا لم تخطر ببال الشابى فى سنه المبكرة وعالمه الغض البسيط ، ومن هنا أصبح الذوق العربى الآن ينظر إلى الشابى كما ينظر الإنسان إلى صباه النقى الطاهر الذى لم يتلوث بالتجارب الكثيرة المعقدة ، و لم تتجاذبه عوامل متناقضة متصارعة .

كان الشابى مثاليًا فى كل شىء : فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كاملة ، ونور شفاف يهبط على حياة الإنسان فيحمل إليه كل معانى السعادة الروحية العميقة ، والطبيعة أيضًا عالم مثالى نقى ، تمت صياغته بصورة خلصته من النواقص والشوائب ، وحتى الشر أيضًا عند الشابى هو شر مثالى مطلق متطرف .

لم يعرف الشابى أبدًا الأعماق التى عرفها (المزاج الواقعى والذى ينظر نظرة إنسانية إلى الحياة لا نظره (ملائكية) مبنية على الخيال ، فالنظرة القديمة إلى المرأة على أنها كائن حسى تابع للرجل نظرة خاطئة ، ولكن النظرة المقابلة أيضًا والتى تعتبر المرأة كائنًا أعلى من الكائن الإنسانى ، كائنًا شفافًا يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه النظرة أيضًا ليست صحيحة بصورة مطلقة، فالمرأة كائن إنسانى ، وعضو فى المجتمع تستحق كل ما للرجل من حقوق ، وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من مقاييس الخير والشر .

إن المشكلة عند الشابى هى مشكلة التعميمات و (المواقف المتطرفة) مما لا تستريح إليه النفس الإنسانية التى تعمقت فى تجارب الواقع ، فأى نظرة تدعو إلى أن المرأة هى خير كلى كامل وأنها كذلك بلا استثناء فى جميع المواقف والأحوال ؟! مثل هذه الفكرة العامة المطلقة إنما هى فكرة تفوح منها رائحة الطفولة الشعورية ، وبساطة الإحساس ... إنها فكرة لم تصل إلى درجات أبعد من العمق الذى يدرك (حالة الصراع) بين الكمال والنقص ، بين الخير

والشر فى واقع الإنسان : رجلاً كان أو امرأة .

ومثل هذه النظرة تنطبق على بقية الأفكار الرئيسية التى عبر عنها الشابى ، حيث يشترك فى هذا النوع من التعبير مع جميع الشعراء الرومانسيين الأصلاء فى العالم .

ولنأخذ مثالاً صغيرًا يمكن أن نقيس عليه . يقول الشابى فى قصيدته (أيتها الحالمة بين العواصف) :

أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد ..

وهذه الفكرة الجميلة المثالية عن المرأة هى الفكرة التى يعيش بها الشابى على الدوام . وهذه الفكرة بالطبع هى نوع من نبل الخيال ، وروعة الخيال ، وليس فيها نبل الواقع ، ولا روعة الواقع ... ذلك الواقع الذى لفح الإنسان العربى الجديد بتجاربه العديدة ، فأصبح ينظر إلى هذا النوع من الأحاسيس على أنه نوع من أحاسيس (الصبا) ومشاعره الأولى .

ذلك هو السر فى أن الذوق المعاصر قد تجاوز المشاعر والتجارب التى كان الشابى يعبر عنها ، وإن لم يكن تعبير الشابى عنها قد انتهى فما زال له بريقه وما زالت له روعته ، ففيه من الصدق والشوق إلى الحياة وأصالة الموهبة الفنية ما يضمن له البقاء والخلود ، وما يجعل منه شاعرًا نادرًا لا يتكرر كثيرًا ... كل ذلك رغم (عدم النضج) بالنسبة إلينا فى تناوله لموضوعاته والنظر إليها نظرة مثالية عامة غير واقعية لا تدرك التفاصيل الدقيقة والجزئيات المختلفة ، وهى الشىء الذى لم يكن بالإمكان الوصول إليه فى عصر الشابى .